

## النظام العالمي الجديد والشرق الأوسط : قراءة في مقاربات الخطاب الفكري الأمريكي

بواسطة أيمن ❖

**الملخص:** يحاول هذا البحث معالجة مشكلة علاقة النظام العالمي الجديد بقضايا المنطقة الشرق أوسطية والتأثيرات المتبادلة بينهما . انطلاقا من استقراء الخطاب الفكري لمجموعة من المفكرين الذين يمكن اعتبارهم ضمن الأكثر تأثيرا في الرأي السياسي والفكري الأمريكي الراهن على اختلاف وتنوع منظورياتهم للقضية الشرق أوسطية والنظام العالمي. ويتعلق الأمر بخمسة نماذج: هنري كيسنجر .فرنسيس فوكوياما .صموئيل هنتنغتون .برنارد لويس ونعوم تشومسكي. ويستمد هذا البحث أهميته انطلاقا من تناوله للخطاب الفكري المركزي للنظام العالمي وتأثيراته في أهم مناطق العالم حراكا سياسيا . أي الشرق الأوسط. حيث سيعمد هذا البحث تقييما ونقدا لهذه المقاربات لمحاولة صوغ منظور عن واقع علاقة النظام العالمي بالمنطقة الشرق أوسطية ومآلات هذه العلاقة. الكلمات المفتاحية: النظام العالمي الجديد . فكر أمريكي . شرق أوسط.

### مقدمة:

إذا ما أردنا البحث عن مقياس للتاريخ فيمكن القول على العموم بأنه مقياس الحرب والسياسة. فالتاريخ العام أو التاريخ المتعارف عليه في الوعي الجمعي هو تاريخ الأبطال والقادة والحروب والحضارات. لذا يمكن اعتبار الحرب والسياسة ثنائيتين مترادفتين تحركان معا مسار التاريخ أو هكذا يبدو. فعلى الرغم من ظهور أصناف جديدة من التأريخ مثل تاريخ العلوم وتاريخ المعارف وغيرها . إلا أن التاريخ بشكله العام يبقى يحيلنا لتاريخ السياسة والحروب أكثر من أي مجال آخر.

إن الحرب والسياسة لا وجود لأحدهما بدون الآخر. وإذا انتفت الحرب فان السياسة لن تجد مبررا لوجودها! وبالتأكيد لا وجود لا حرب ولا ل عسكرية البشر بدون استراتيجيات سياسية . لذا أمكن القول أن الحرب والسياسة يتعايشان في علاقة تبادلية ضرورية لوجود كل منهما.

ويبدو هذا المدخل لتحديد ماهية العلاقة بين الحرب والسياسة ضروريا لفهم إشكالية

\*مخبر الفلسفة  
وتاريخها. جامعة  
وهران ٢ . الجزائر.  
إشراف: أ.د بهادي منير

علاقة النظام العالمي الجديد بقضايا منطقة الشرق الأوسط . حيث يجد مشروعيته من منطلق أن منطقة الشرق الأوسط الحالية تمثل بؤرة القلاقل الحربية والسياسية الراهنة بامتياز. إن قضية ما يعرف بمنطقة الشرق الأوسط هي أكثر من مجرد أزمة سياسية ونزاعات مسلحة . إنها قضية ذات أبعاد تاريخية وإستراتيجية وسياسية . يتداخل فيها البعد المحلي والإقليمي والعالمي . وتتمازج فيها عوامل السياسية والاقتصاد والإستراتيجية والحرب والدينية وغيرها. وإذا كان النظام العالمي الجديد يقيم مشروعية وجوده على أنه مشروع لإحلال السلام الدائم عبر استناده لشعارات الديمقراطية والحرية. فان مشروعية سلامه هذا معرّضة لأشد درجات الخطر بفعل تطورات الأحداث في المنطقة الشرق الأوسطية . حيث تتصادم النزاع الأيديولوجية التي تدعي كل منها صوغ رؤاها الخاصة لنظام عالمي جديد تعارض به النظام العالمي القائم راهنياً.

إن النظام العالمي الجديد الذي رُسمت ملامحه في العالم بعد انهيار المعسكر السوفياتي يجسد انتصار نموذج الليبرالية اجتماعياً والرأسمالية اقتصادياً والنموذج الديمقراطي سياسياً. حتى وصل الأمر بفرنسيس فوكوياما لأن يعلن أن هذا النظام العالمي الجديد هو نهاية التاريخ! فالنظام العالمي هذا إن كان يجد له ثابتاً فهو في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث أن النظام العالمي الجديد يقوم على فكرة الريادة والاستثناء الأمريكي. فهو أو كما يسمى بالعولمة أو الأمركة—عند معارضيهِ— هو انتصار لما يسميه ألكسندر كوجيف Alexandre Kojève الطريقة الأمريكية في الحياة American way of life. وهو على العموم يمثل نهاية الأيديولوجيات أو انتصار الأدلوجة الواحدة . ومشكلة منطقة الشرق الأوسط تمثل في خطرهما على تناغم هذا النظام العالمي بفعل نشاطها الأيديولوجي . حيث تعتبر المنطقة حية ايديولوجياً لا بل مفرطة في نشاطها الأيديولوجي. ويكفي أن ننوه لأن مستشرفي ومنذري قيام الحرب العالمية الثالثة—او الرابعة— لا يمر أحدهم إلا وانكب اهتمامه بدراسة أحوال الشرق الأوسط. مشاريع دينية . سياسية . حركات مسلحة راديكالية . قوميات . صراعات عرقية وإثنية ودينية ... كل هذا وأكثر هي من مكونات القدر الشرق الأوسطي الذي يهدد في أي لحظة بالانفجار في وجه النظام العالمي بريادته الأمريكية.

من هنا يجد هذا البحث أهميته من حيث أنه يمثل قراءة في خطاب مركز النظام العالمي ورؤيته للقضية الشرق الأوسطية. حيث أنه هذا العمل البحثي سيتطرق لمنظورات خطاب نخبة من المفكرين والمنظرين السياسيين الذي يمكن إدراجهم داخل مجال الخطاب الأمريكي . وسيتم انتقاء هؤلاء على تعارض أفكارهم وتقاربها لمحاولة صوغ رؤية تقريبية عن الخطاب الفكري الأمريكي وقراءته لتأثير الأزمات الشرق الأوسطية في مستقبل النظام العالمي. حيث سيتم تناول خمسة مفكرين (هنري كيسنجر . فرنسيس فوكوياما .

صموئيل هنتنغتون . نعوم تشومسكي . برنارد لويس ) محاولا الاجابة عن اشكالية طبيعة مقاربات الخطابات الأمريكية حول تمثل واقع ومستقبل النظام العالمي في ظل أحداث المنطقة الشرق أوسطية.

## I المقاربات

### مقاربة هنري كيسنجر

هنري كيسنجر أحد أكثر الشخصيات السياسية تأثيرا في القرن الواحد والعشرين . سطع نجمه إبان توليه لوزارتي الدفاع والخارجية الأمريكية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. يعتبر العقل المدبر لعملية السلام بين مصر وإسرائيل عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ م . وعملية الانسحاب الأمريكي من فيتنام في ١٩٧١ م التي حصل إثرها على جائزة نوبل للسلام. كذلك يعتبر كيسنجر أحد أهم وجوه سياسة تقارب أميركا مع الصين في بداية الثمانينيات. وحاليا صاحب مؤسسة استشارات سياسية واقتصادية . وله عدة مؤلفات في المجال السياسي.

ينتمي هنري كيسنجر للمدرسة الواقعية في السياسية realpolitik فكرا وتطبيقا . فقراءته للنظام العالمي تقوم على مبدأ توازن القوى . وحسبه أن لا سلام بدون تحقيق مبدأ توازن القوى. وكل خلل في توازن القوى سيؤدي إلى انهيار النظام العالمي وخلل في السلام العالمي. يدعو كيسنجر للأخذ بالمثل الوستفالي (اتفاقية وستفاليا ١٦٤٨ م) التي تفترض مبدأ توازن القوة والاعتراف المتبادل بين الدول وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. بمعنى آخر كيسنجر يحذر من أي كيان سياسي ذو طموح توسعي يهدف لأن يتعالى على النظام العالمي بصيغته (الوستفالية). يعود كيسنجر للتاريخ، مبرزا أهم من حاول هذا الأمر بعد معاهدة وستفاليا. لويس الرابع عشر . نابليون . هتلر . الاتحاد السوفييتي . الايديولوجيا القومية العربية (جمال عبد الناصر. صدام حسين) ...! حيث أن كل محاولة لتجاوز النظام العالمي بهدف صوغ نظام عالمي جديد مأمول تمثل خطرا على الاستقرار العالمي حسب كيسنجر. لهذا نجد كيسنجر يعتبر الصين أقل خطرا من الجمهورية الإسلامية الإيرانية . لأن هذه الأخيرة حسبته تعتمد إلى توظيف الخطاب الديني الخلاصي لبناء نظام عالمي حسب رؤيتها الخاصة تريد أن تفرضه على العالم.(١)

بالنسبة لقضية الشرق الأوسط فمنظورية كيسنجر للقضية تفصيلية . وتحمل أبعادا تطبيقية. من منطلق خبرته في الميدان إثر شغله لمنصب سيادي في السياسة الخارجية الأمريكية وتعامله المباشر مع عدة قضايا مهمة في المنطقة أهمها حرب أكتوبر ١٩٧٣ م والثورة الإيرانية . وبعدها انطلاق الحرب الخليجية الأولى. يؤكد هنري كيسنجر مرة أخرى تصور الواقعية السياسية في المنطقة . ويرى أن تطبيق الواقعية السياسية هو الضمان الوحيد لتحقيق الاستقرار في منطقة اشتهرت بقلقلها التاريخية والآنية.

إن وجود إيران في المنطقة وطموحاتها الأيديولوجية . وصراعها مع المرجعية السنية . إضافة إلى التعدد الإثني والعرقي الكبيرين . مضافا لهما وجود دولة جديدة معادية لأغلب الدول العربية — إسرائيل — في قلب المنطقة . يجعل من منطقة الشرق الأوسط منطقة قلقة واقفة دائما على فوهة بركان قابل للانفجار في أي لحظة .

بحسب كيسنجر فإن السياسة الخارجية الأمريكية تتجاذبها نزعتين قد تكونان متعارضتين في كثير من الأحيان . الواقعية السياسية القائمة على مبدأ المصلحة . والمثال الأمريكي الداعي لنشر قيم الليبرالية والديمقراطية في العالم . هاتين النزعتين قد تتعارضان في بعض الأحيان . حين تقتضي المصلحة عدم السير وفق المبادئ . إن كثيرا من المناطق غير جاهزة لتلقي المثال الليبرالي أو ممارسة الديمقراطية . سيكون من الخطر التعامل معها وفقا للمثال الأخلاقي . إن الشعارات الديمقراطية المرفوعة في ما يعرف بالربيع العربي لم تقد إلى ديمقراطيات وليدة . بل قادت إما لوصول نخب دينية للسلطة أو عودة السلط العسكرية . وهنا مكنم الخطر في عقيدة نشر الديمقراطية .

يرى كيسنجر أن منطقة الشرق الأوسط منطقة قلقة كثيرا . لسببين: الأول تاريخي . حيث أن أغلبية دول المنطقة إسلامية . والتصور الإسلامي له نظامه العالمي الخاص الذي طبق قديما ويتم استحضاره من قبل الحركات (الاسلاموية) حاليا . لان كتلة الأفكار هذه تمثل عكسا شبه كلي وقلبا لنظام وستفاليا الدولي (٢) . النظام العالمي المقترح متمثل حسب كيسنجر في محاولة عوامة الدين الإسلامي (الايديولوجيا الإسلامية) لتحقيق الخلاص العالمي به . حيث يتم انطلاقا منه تقسيم العالم إلى نطاقين . دار الإيمان أو دار السلام . ودار الكفر أو دار الحرب . السبب الثاني هو سبب جيواستراتيجي . حيث حسب المنظورية الوستفالية فانه من الضرورة البحث عن مراكز قوى ثابتة ومرتكزات قوية في المنطقة حتى يتم بناء نظام مستقر فيها . إسرائيل لا يمكن الاعتماد عليها لتحقيق الإجماع الذي سيسمح ببناء نظام شرق أوسطي . لأنها تمثل دولة معادية لكثير من الدول الشرق الأوسطية الإسلامية الهوية . إيران تمثل خطرا على النظام العالمي الوستفالي من منطلق امتلاكها تصورا خاصا عن نظامها العالمي . باقي الدول إما دول فاشلة أو غير مستقرة نتيجة للثورات والأزمات الداخلية . تبقى دولة واحدة تمتلك استقرارا داخليا وجاذبية إقليمية نسبية . هي المملكة العربية السعودية . وإن كانت توجهات المملكة العربية السعودية لا تلائم منظومة النظام العالمي تماما . وجب على السياسة الخارجية الأمريكية أن تأخذ في الاعتبار أن سياسة الدولة السعودية الداخلية هذه حتى وإن تعارضت مع المثال الليبرالي الذي يدعو إليه النظام العالمي الجديد فإنها تبقى الحليف الضروري في الشرق الأوسط على رأي كيسنجر . وإذا أخذنا بالمبدأ الوستفالي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية فان الأمر سيحل الإشكال إثرها! . من هنا يظهر بوضوح حتى وان كان كيسنجر بخطابه السياسي لا

يصرح به ضمنا . فانه — كيسنجر — يقف ضد دعاة العولمة الثقافية . لصالح المصلحة الإستراتيجية . وهل يستطيع منظر الواقعية السياسية أن يعمل بغير ذلك!

يرفض هنري كيسنجر فكرة الفوضى الخلاقة . فالنظام العالمي لا يجب أن يقوم على مبدأ المصادفة . ولأن التدخل الخارجي القائم على المبادئ الأخلاقية بدون النظر للواقع الاستراتيجي . هو مخاطرة كبرى . وعملية مرشحة للانقلاب لضدها — وهذا ما حدث في الشرق الأوسط نتيجة الحملة العراقية في سنة ٢٠٠٣م — . فان رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في إزالة نظام شمولي — نظام صدام حسين — حتى يكون عبرة لغيره في المنطقة هي عملية لم تكن محسوبة العواقب حسب كيسنجر . لأن ما تبعها كان أنكى وأمر . لقد ولد الفراغ السياسي نتيجة لعدم قابلية المجتمع العراقي المنقسم اثنيا ودينيا (سنة وشيعة) للممارسة الديمقراطية . وهذا ما أدى لانهايار مفهوم الدولة في العراق تماما . حيث تصاعدت إثرها المنظمات الجهادية التي تتبنى رؤيتها الخاصة لنظامها العالمي المأمول الذي تحلم أن تعوض به النظام العالمي الحالي . بالتالي بدل تحقيق السلام في الشرق الأوسط عن طريق نشر الديمقراطية . فان الأمر انقلب إلى ضده . حيث تحول الأمر لفوضى عارمة . وتحول الشرق الأوسط أثرها إلى فوهة بركان نشطة تهدد حممها النظام العالمي برمته . لهذا يقترح كيسنجر على النظام العالمي القائم على فكرة الاستثنائية والريادة الأمريكية إضافة للمبدأ الوستفالي حول توازن القوى والاعتراف الدولي المتبادل . بأن يتبنى إستراتيجية أكثر واقعية . لابد من مزاجية الطموحات الأخلاقية المعنوية مع مقاربة تأخذ في حسابها العنصر الاستراتيجي للسياسة... (٣).

يقترح كيسنجر تطبيق الوصفة الوستفالية بتأني وبحنكة على الشرق الأوسط حتى ينخرط في النظام العالمي . لأن الأمر حسبه هو الوسيلة الأمثل لمواجهة الأيديولوجيات الإسلامية التي تحلم بتجسيد نظامها العالمي على أنقاض الدول المتهالكة في المنطقة . وهو ما يجعل النظام العالمي أمام عدة تحديات تواجهه قادمة من الشرق الأوسط . خصوصا تلك القائمة على التوجهات الراديكالية الحاملة بفرض نظامها العالمي كبديل للنظام العالمي الحالي . الحل حسب كيسنجر هو كما سبق ذكره . تطبيق المبدأ الوستفالي حول توازن القوى . وبناء كيانات دول قوية مستدامة قائمة على مشروعية صلبة . لكن يبقى التساؤل كيف السبيل إلى ذلك؟ وكيف المزاجية بين المثال الأخلاقي للنظام العالمي وبين الواقع الاستراتيجي للمنطقة؟ هذه أسئلة يتركها كيسنجر للمستقبل لكي يجيب عنها وان اقترح بعض السبل الممكن السير فيها . لأنه حسبه لم يعد يجدي — أو ليس في المستطاع — البحث عن (معنى للتاريخ) (٤) !.

### مقاربة فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama

لم يكن الاهتمام بالقضية الشرق أوسطية لدى فرنسيس فوكوياما هما محوريا . وسنكتشف لاحقا أنه ليس فعل بل رد فعل. حيث أننا لا نجد في كتابات فوكوياما الأولى وعلى رأسها كتاب **نهاية التاريخ وخاتم البشر** إشارات واضحة عن القضية الشرق أوسطية. لكن كل هذا تغير بعد هجمات مانهاتن ٢٠٠١م التي تبناها رسميا تنظيم القاعدة، حيث أمضى فوكوياما رفقة مجموعة من المفكرين على رسالة لإدارة جورج دبليو بوش الابن تطالبها بالتحرك للجم الخطر القادم من الشرق الأوسط. بعد هذا صدرت لفوكوياما عدة مؤلفات في كل منها ظهرت تحولات فكرية وإنتمائية . كان أبرزها قطيعته مع فكر المحافظين الجدد الذي صدر في كتابه (أمريكا على مفترق الطرق: ما بعد المحافظين الجدد الصادر سنة ٢٠٠٦م). ثم ثنائيته حول تطور النظام السياسي المعنونة ب(في أصل النظام السياسي) الصادر سنة ٢٠١١م و(الانحدار السياسي) الصادر سنة ٢٠١٤م. واعتبر في كتابه (بناء الدولة) أن الفشل في بناء الدولة ومؤسساتها مثل وتر في أخيل إستراتيجية التدخل الخارجي الأمريكي. وهذا الأمر نفسه خلق البلبلة والفوضى في المنطقة مما أثمر صعود الحركات الجهادية ذات البعد العولمي للواجهة.

أجبرت الوقائع فوكوياما على أن الإتجاه لدراسة أزمة الشرق الأوسط إذا ما أراد تبرير طرحه حول نهاية التاريخ . أوليس الشرق الأوسط قاب قوسين أو أدنى من أن ينفي ما كتبه فوكوياما سنة ١٩٩٢م!؟

إن البلاغة التي تدور حول الحرب العالمية الرابعة زمن الحرب الكونية على الإرهاب يجب أن تتوقف. نحن نقاتل حروبا ساخنة تكافح التمرد في أفغانستان والعراق ونقاتل ضد حركة الجهاديين الدوليين. وهي حروب نحتاج إلى كسبها . ولكن تصور الصراع الأوسع بوصفه حربا كونية تقبل المقارنة بالحروب العالمية أو بالحرب الباردة هو تصور يبالغ مبالغة ضخمة في توكيد نطاق المشكلة (٥) .

هكذا رأى فوكوياما أن أحداث الشرق الأوسط هامشية بالرغم من أنها تقترب أن تشكل صيغة حرب مكتملة الأركان تنخرط فيها عدة قوى إقليمية وعالمية. فهو يصر على أن التوجه نحو الديمقراطية مازال قائما . وإن لم يصل الشرق الأوسط إلى مرحلة نهاية التاريخ بعد فانه يمر بتمخضات مر بها الغرب سابقا. ويستدل بثورات الربيع العربي —وان لم تثمر نتائج فورية— وأن شعاراتها المرفوعة حول الديمقراطية والحرية لدليل على صدق نظريته حول نهاية التاريخ(٦) . من هنا نفهم لماذا عاد فوكوياما بعد عشرين سنة من اصدار (نهاية التاريخ) للبحث في بداية التاريخ. إن فوكوياما يبحث عن الحجج التاريخية والأمثلة والقرائن ليبرهن أن المسار الخطي نحو نهاية التاريخ مازال قائما . وأن التخبطات التي تحصل حاليا وعلى رأسها أزمة الشرق الأوسط . ما هي إلا نتيجة طبيعية .

وربما عملية مخاض طويلة الأمد قبل التوجه نحو الديمقراطية الليبرالية. لا تبدو المقاربة الشرق أوسطية ذات أهمية أو الية في فكر فوكوياما وذلك يجد مبرراته أن نظر صاحب نهاية التاريخ متجه صوب الشرق . تحديدا إلى الصين. إن الصين حسب فوكوياما تشكل التهديد الأهم للمكانة الأمريكية في المستقبل . وهي على ما يقول المفكر الأمريكي من أصل ياباني ترفض الانخراط في نظام لم تشارك في صنعه . فهي بهذا تهدد في حالة ما تواصل تضخمها بأن تقلب موازين القوى داخل النظام العالمي. وان كان فوكوياما يعرف جيدا مقدار الأفكار المعادية للتوجه الأمريكي في الشرق الأوسط . فانه لا يراهن عليها كخطر جوهري نظرا لافتقارها القوة والمشروع الحضاري. حيث أن الشرق الأوسط حسب فوكوياما قبل كل شيء يعاني مشكلة دولة . أي غياب مفهوم دولة قوية ومشروعة.

ربما يكون لعدم تصنيف فوكوياما لمسألة الشرق الأوسط كخطر رئيسي يهدد النظام العالمي هو عدم تفسيره لأزمة المنطقة انطلاقا من دراسة الخلفية الأيديولوجية دراسة معمقة. ونوه هنا بأن المشكلة السياسية في الشرق الأوسط لا يمكن بحال تجاهل الخلفية الدينية المتوهجة للعيان فيها. وربما يكون لعدم تخصص فوكوياما في هذا المجال ما يبرر منظورته.

يقول فوكوياما بنظام عالمي أحادي القطب . يقوم على الريادة والاستثناء الأمريكي. وما تخبطات الشرق الأوسط إلا حجر عثرة يمكن للنظام العالمي أن يتجاوزه عبر تبني استراتيجيات أكثر نجاعة بحسب صاحب نهاية التاريخ. ويظهر لنا من هذا أن فوكوياما متيقن بحتمية انتصار الديمقراطية الليبرالية والرسالة الأمريكية الخلاصية التي يشكلها النظام العالمي أحادي القطب . ودليله أن التوجهات السياسية اليمينية واليسارية متففة على المثال الديمقراطي(٧) . وما أزمة الشرق الأوسط وتخبطاته إلا مسألة مؤقتة. مآلها إما أن الالتحاق بالركب أو تغمرها موجة نهاية التاريخ!

#### مقاربة صموئيل هنتنغتون

نأتي الان لمقاربة هنتنغتون الشهير بنظرية صدام الحضارات . حيث يرادف هنتنغتون من جهة بين الثقافة والحضارة . ويربط الهوية الحضارية بالفكرة الدينية من جهة أخرى. ففي تقسيمه للحضارات يربط كلا منها بدين معين (الإسلامية . الغربية (مسيحية) . الأرثوذكسية . البوذية ...). وهذه الهوية الدينية هي ما يشكل جوهر الحضارة المسؤول عن قدرة هذه الحضارات على الصمود عبر الزمن. الهوية الدينية الحضارية تمثل هوية صلبة . أي أنها في عملية التلاقي مع الهويات الأخرى تهدد بالتصادم مع غيرها. حيث يصل هنتنغتون إلى استنتاج أن الهوية الإسلامية والهوية الصينية هما أصلب تلك الهويات. وحيث أن الأولى بفعل طبيعة خطابها الكوني فإنها تعتبر

هوية متصادمة مع غيرها بالطبيعة . خصوصا مع هوية الحضارة الغربية التي تحمل مشعل لواء ما يعرف بالنظام العالمي الجديد ذو الطبيعة الكونية هو الاخر . نتوقف هنا عند فكرة العولمة . فان هنتنغتون ينطلق من نقد طرح فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ . حول نهاية الثقافات والحضارات لصالح النموذج الأحادي المنتصر أي نموذج الحضارة الغربية والنظام الثقافي السياسي الليبرالي الديمقراطي . يقول صاحب **صدام الحضارات** بعالم متعدد الحضارات ومتعدد الأقطاب وهذا ما قصده بعنوان كتابه **النظام العالمي الجديد** . إن انتصار الأيديولوجية الغربية على نظريتها الاشتراكية السوفييتية والذي عنى ضمنا نهاية عهد الثنائية القطبية لا يفترض بنا أن نتسرع في تصور النظام العالمي الجديد على أنه انتصار للقطب الواحد والنموذج الواحد كما أشار فوكوياما في غمرة تهليله بسقوط الاتحاد السوفياتي في كتابه الصادر سنة ١٩٩٢م (٨) . بل إن النظام العالمي الجديد قائم على تعدد الحضارات والأقطاب . وهذا ما ستبرهن عليه الأحداث الواقعية حسب رؤية هنتنغتون (٩) . ولكن مع ذلك فان التنوع الحضاري هو ذاته ما يمثل خطرا قائما في الأفق . إن الهويات المتصادمة والمتعولمة تهدد بحدوث صدام عالمي إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة . وحيث أن العالم يحفل ببؤر صدام نائمة تنتظر فقط المحفزات الضرورية لتشتعل من جديد . وأهمها هي منطقة الشرق الأوسط بحدودها الدموية على تسمية هنتنغتون .

بالنسبة لسموئيل هنتنغتون وطرحه الشهير حول صدام الحضارات . فان قضية الشرق الأوسطية تعتبر من أهم النقاط المحورية التي ستحدد مستقبل الشرق الأوسط . لماذا ؟ لأن الشرق الأوسط وما يحمله من ثقل تاريخي مليء بالصراعات الدموية . ويعتبر النقطة المحورية لتلاقي حدود الحضارات القديمة . وحدوده الخارجية تجسد ما يسميه هنتنغتون بالحدود الدموية للإسلام (١٠) . هذا من جهة ومن جهة يعتبر بؤرة صدام المراكز العالمية الكبرى (الخارجية) حيث أن تداخل المصالح الأمريكية والروسية في المنطقة جلي للعيان . هذا إضافة لصعود الدور الصيني مؤخرا في المنطقة . من جهة ثانية تمثل محور الصراع حول امتلاك رمزية المركزية داخل الحضارة الإسلامية بين عدة قوى إقليمية كإيران باعتبارها ممثلا للإسلام الشيعي وبين المملكة العربية السعودية وتركيا العائدة مؤخرا لتوجيه أنظارها صوب العالم الإسلامي — حيث يتنافسان على المركزية السننية و ثم المركزية الإسلامية . ولا يستبعد هنتنغتون من دائرة الصراع حول المركزية دولا كمصر بدورها التاريخي والمركزي في العالم العربي وباكستان بقوتها النووية . وإضافة للصراع القلق حول مركزية الحضارة الإسلامية . فان وجود دولة دخيلة على المنطقة ألا وهي إسرائيل بصيغتها الدينية كدولة عبرية يهودية — بالرغم من أنها تعتبر نفسها جزءا من الحضارة الغربية — يزيد من احتقان الوضع . كما أن وجود



تنوّعات اثنيه ودينية كبيرة في الشرق الأوسط تم احتواءها بواسطة كيانات سياسية—الدولة القطرية— في القرن العشرين . ما لبثت أن عادت للانفجار في مطلع القرن الواحد والعشرين بتضعف هذه الكيانات . حيث أصبحت المنطقة قدرا يغلي . وخطرا رئيسيا يهدد بنشوء حرب عالمية كبرى جديدة. وما الحروب المتكررة التي تشهدها المنطقة إلا دليل على ذلك.

ينظر هنتنغتون لمسألة الشرق الأوسط بعين حذرة . حيث يرى بأن الشرق الأوسط مليء بخلايا نائمة لهويات متفجرة . فإذا ما حدث الانفجار وبدأ الصدام فان تداخل المصالح داخل الحضارة الإسلامية وخارجها قد يقود إلى حرب كونية نظرا لتورط القوى العالمية في الصراع الدائر في الشرق الأوسط . وكذلك نظرا للثقل التاريخي لمنطقة الشرق الأوسط كمهد الحضارات ومركز الأديان السماوية. إن العلاقات داخل الشرق الأوسط محكومة بميزان صدام الحضارات . حيث لا يمكن حسبه أن نجعل المصلحة وحدها معيارا نقيس به موازين السياسة في الشرق الأوسط . لان الهويات الحضارية—الثقافية الصلبة التي تتعايش داخل منطقة الشرق الأوسط لا يمكن أن نسلم لها بالاستقرار الدائم . فأى احتكاك صدامي بين الحضارات سيؤجج نار الفتنة في الشرق الأوسط . بهذا يكون هنتنغتون قد نظر لمنطقة الشرق الأوسط كمنطقة حيوية للصدام بوقع الصراع الخارجي والداخلي. الداخلي حول مركزية الحضارة الإسلامية . والخارجي نظرا لوجودها على حدود حضارية متصادمة—إذا ما أخذنا في الاعتبار عدوانية الهوية الإسلامية على ما يراه هنتنغتون—. إن الأمر بهذا المعنى يصبح عبارة عن تجمع عدة مكونات لخطئة خطيرة في نفس القدر الشرق أوسطي.

ما تتميز به رؤية هنتنغتون أنها تستند إلى معطيات واقعية . فطريقة الاستدلال الإحصائي والجغرافي والتاريخي والديموغرافي . جعلته متنبئا ناجحا لما سيحدث لاحقا — كتاب **صدام الحضارات** نشر سنة ١٩٩٦ — من الهجمات (الجهادية) على برجى منهاتن في ٢٠٠١ م . ومن تفجر الصراعات الإثنية والطائفية اثر الإطاحة بنظام صدام حسين في العراق سنة ٢٠٠٣ م . والأحداث السورية حاليا وماتج عنها من تحول في منطقة الشرق الأوسط إلى بؤرة للصراع العالمي على ما نشهده اليوم. من هنا يستدل هنتنغتون على صحة تصوره للنظام العالمي . كنظام متعدد الأقطاب—على مستوى الخطاب— وعلى النقيض من أصحاب رؤى الأحادية القطبية! فالى أي مدى يمكن أن نقر بمصادقية ومشروعية هذا الطرح الصدامي؟ هذا السؤال هو ما سأحاول الإجابة عنه قبل نهاية هذا البحث.

يرى هنتنغتون أن الصدام حتمية تاريخية ولا يمكن لنظام عالمي أن يسمى بنظام عالمي شامل إلا إذا قام بقبول فكرة التعدد الثقافي والحضاري . لكن هذا التعدد يحمل في طياته

بذور الصدام — وما الشرق الأوسط إلا أبرز دليل على نظرية صدام الحضارات كما سبق الإشارة إليه —. هنا تكمن المفارقة. فهنتنغتون يقول بفكرة الصدام على مستوى الخطاب المصرح به للقبول بالتعدد الثقافي والحضاري. ومن جهة أخرى يعمل على مستوى ما وراء الخطاب لتحفيز الحضارة الغربية وعلى رأسها أميركا للبقاء على أهبة الاستعداد بغرض الحفاظ على ريادتها للنظام لعالمي في مواجهة التحديات التي تطرحها طموحات الهويات الحضارية الأخرى. وعلى رأسها الهوية الإسلامية والصينية. لذا فالأهمية الحقيقية للمقاربة الصدامية تكمن في الوظيفة التي تؤديها (١١).

### منظورية برنارد لويس

برنارد لويس مفكر ومؤرخ من أصل بريطاني. مختص في دراسات الشرق الأوسط. وله عدة كتب ومؤلفات في هذا المجال. ونظرا لوجهات نظره يعتبر برنارد لويس أحد أهم المستشرقين المعاصرين وأكثرهم أثرا في مجال الفكر الأمريكي المعاصر وأكثرهم جدلا أيضا. نظرا لعلاقاته مع تيار المحافظين الجدد من جهة. وعلاقاته مع اليمين الإسرائيلي. هذا إضافة إلى دفاعه عن عقيدة التدخل العسكري.

ينظر لويس المختص في دراسة الشرق الأوسط لقضايا المنطقة بعين المؤرخ والمستشرق في آن. فالشرق الأوسط منطقة قلقة على ما يراه برنارد لويس. والذي على شاكلة هنتنغتون ينطلق من فرضية صدام الحضارات لتفسير قضية الشرق الأوسط. إن الصراع بين السنة والشيعة إضافة لدخول دولة إسرائيل على الخط بعد ١٩٤٨ م. وتوالي النزعات الأيديولوجية في المنطقة. من الأيديولوجية القومية العربية. إلى الأيديولوجية الإسلامية بشقيها الشيعي والسني. إضافة إلى الأيديولوجية الصهيونية. تجعل من المنطقة بؤرة لصدام الأيديولوجيات والهويات المتخاصمة. إن الشرق الأوسط لا يستطيع إحداث القطيعة مع ماضيه. إذ هو مهد الحضارات والأديان الذي شهد أعظم الإمبراطوريات في التاريخ وآخرها العثمانية. وإن كان حاليا يعاني من أزمة. فإنه يتوفر إما على إمكانية النهوض أو الاندثار!

يقول برنارد لويس بفكرة صراع المركز والأطراف. والصراع على المركز داخل الحضارة الإسلامية ذاتها. هذه الفكرة نفسها هي ما سيستلهمها منه هنتنغتون في صياغة نظريته حول صدام الحضارات.

يرى برنارد لويس أن الهوية الإسلامية هي هوية تصادمية بالطبع. وصعود الأصولية الإسلامية هو تجل من تجليات مكنونات تلك الهوية. إن وجود النزعات الأصولية الإسلامية في المنطقة يجعل من مشروع السلام على المحك. لأن الأصولية هي أيديولوجية ذات نزعة حربية بالطبع. لذا فإن الصراع الحقيقي بحسب برنارد لويس يجب أن يكون بين الديمقراطية (العلمانية) والأصولية الدينية. فإذا ما تغلبت الأولى على الثانية كان هناك

إمكانية لحصول السلام في المنطقة . أما عكس ذلك فإنه يبقى باب الصراع مفتوحاً . على مستوى الاستشراف بمستقبل الشرق الأوسط . فان لبرنارد لويس نظرة تشاؤمية على المستوى القريب . فالأوضاع آيلة للأسوأ . والواقع لا يبشر بخير . بسبب استمرار صعود الأصوليات . يرى برنارد لويس في هذا خطراً على النظام العالمي الجديد . فإذا ما تدخلت الصين وروسيا لدعم الدول ذات التوجه المعادي للنظام العالمي هذا فإن موازين القوى يمكن أن تختل . ويعود الأمر خارج سيطرة النظام العالمي (١٢) . يراهن برنارد لويس على عملية العلمنة كسبيل لتجاوز الهويات الأصولية الهجومية . حيث أن تركيا حسبه مثال يحتدى به لباقي الدول الإسلامية . وإذا ما حدث نفس ما حدث في تركيا فإن السلام في الشرق الأوسط يصبح ممكناً . لكنه يستبعد هذا على الأقل في آفاق المستقبل القريب .

باختصار وحتى لا نطول في القول . يمكن القول أن برنارد لويس لا يخرج عن براديجم صدام الحضارات . ومعرفته الواسعة بتاريخ المنطقة وتفصيلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تجعله قادراً على صوغ منظورية متماسكة لتبرير نظرية الصدام في منطقة الشرق الأوسط .

نلفت الانتباه بأن لمنظورية برنارد لويس هذه الأثر البالغ في نشأة نظرية صدام الحضارات حيث كان من أبرز مصادر التلقي لدى صموئيل هنتنغتون .

#### مقاربة نعوم تشومسكي

بالنسبة لنعوم تشومسكي فهو يمثل نموذج المثقف المنخرط في المعارضة الفكرية للسياسة الخارجية الأمريكية . إلى درجة أن المفكر اللبناني علي حرب يرى في تشومسكي مهووساً بإدانة السياسة الأمريكية وهو ما يوقعه في كثير من المأزق (١٣) . تشومسكي المفكر الإنساني واللاسلطوي . لطالما اعتبر السياسة الأمريكية الخارجية نوعاً جديداً من الهيمنة المقنعة . وما النظام العالمي الجديد أو هكذا يسمى إلا وجه جديد من وجوه تلك الهيمنة في خدمة السياسة الخارجية الأمريكية . عبر عدة كتب . عناوين أغلبها تحمل إحياءات معارضة راديكالية للسياسة الخارجية الأمريكية والنظام العالمي بصيغته التي تبلورت عقب نهاية فترة الحرب الباردة يمكننا أن نميز توجهات تشومسكي السياسية . لاحظوا معي العناوين التالية (قراصنة وأباطرة) . (الدول الفاشلة) . (الشرق الأوسط: مخزن الذخيرة) . (الغرب الإرهابي) . (أمريكا . إسرائيل . فلسطين : المثلث المصري) ... فهي كفيلاً بالتعبير عن وجهة نظر تشومسكي .

إن الشرق الأوسط أو قضية الشرق الأوسط على ما يراها تشومسكي . تمثل تعرية لحقيقة النظام العالمي وفضحا للسياسة الخارجية الأمريكية . التي طالما تذرعت بنشر وحماية مبادئ الحرية والإنسانية والديمقراطية الكونية . لكن ما يحدث في الشرق الأوسط من

كوارث وفوضى حسب تشومسكي هو نتاج للنظام العالمي الجديد الأحادي القطب. حسب تشومسكي فشعارات الديمقراطية والحرية . ما هي إلا دعاية إعلامية تحاول بها الولايات المتحدة الأمريكية تسويق سياستها الخارجية . حيث أميركا كثيرا ما دعمت ديكتاتوريات وأطاحت بديمقراطيات فقط لأن هذه الأخيرة لا تخدم مصالحها . على ما حدث في التشيلي أو نيكاراغوا أو السلفادور أو هايتي مثلا بفعل التدخل الأمريكي المباشر في العملية السياسية (١٤) . أو حتى في دعمها لدول ملكية مطلقة مثل المملكة العربية السعودية أو ديكتاتوريات مثل ما يوجد في أوزبكستان أو طاجاكستان — وهذا ما يتعارض مع المثال الليبرالي—. أما عن الشرق الأوسط فان النظام العالمي الذي تزعم أمريكا أنها تدافع عنه فيه ما هو إلا شماعة لمصالحها الخاصة.

إن التوتر في الشرق الأوسط والبلبله الحاصلة هي نتيجة وجود عنصر دخيل في المنطقة . ألا وهو إسرائيل ، الدولة التي يصفها تشومسكي بأنها تنتهج إستراتيجية القرصنة تحت حصانة الرأي العام الغربي وبدعم من واشنطن (١٥). إن إسرائيل هي الابن المدلل لأميركا. حيث أن هذه الأخيرة تجد لها موطناً قديماً دائماً في الشرق الأوسط من بوابة الأولى. وقد تولت أمريكا دعم إسرائيل مباشرة عبر ثلاثة حروب عربية إسرائيلية. وهي سلسلة متواصلة من الاستراتيجيات الهدامة في المنطقة خصوصا تجسدت في حملة اجتياح العراق في ٢٠٠٣ م . وقبلها دعم المتمردين الجهاديين ضد السوفيات في أفغانستان في أواخر الثمانينيات من القرن المنصرم. حيث تولد من هذا الحركات الجهادية المعولة (القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية ) وفوضى عارمة في المنطقة نتيجة فرض النظام العالمي لهيمنتها على المنطقة بدعم إستراتيجية الفوضى الخلاقة وضرب المصالح ووأد الأصوات (الديمقراطية الفعلية) المعارضة لهذا التوجه بحسب تشومسكي.

إن الشرق الأوسط بهذا المعنى لدى تشومسكي هو قنبلة موقوتة معدة للانفجار في أي لحظة . وإذا ما حصل وأن امتلكت إحدى الحركات الراديكالية على أسلحة تدمير شامل فان تشومسكي يتوقع كارثة عالمية. وما زاد من حدة الاحتقان على رأي تشومسكي هو السياسة الخارجية الأمريكية متمثلة في ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي تعمد أميركا على فرضه بكل الوسائل. مثلما تعمد إلى استخدام مفهوم (الإرهاب) بمعايير مزدوجة لخدمة مصالحها (١٦).

إن الازدواج بين الخطاب والتجسيد . هو ما يهدد بأن يجعل انفجار منطقة الشرق خطراً ذو أبعاد عالمية . حيث أن النظام العالمي الجديد ببعده الخلاصي التبشيري بالديمقراطية والحرية . يناقض واقعه الاستراتيجي في المنطقة. إن أميركا تتبع اذا إستراتيجية الغاية تبرر الوسيلة وتخفي حقيقة الأمر خلف الدعاية الخلاصية الديمقراطية. بهذا فهي تخلق عداوات خطيرة وإرادات انتقام متحفزة للانتقام بأبشع الصور من كل مظاهر النظام

العالمي الحديث متى ما أمكنها ذلك. ولن يزول الخطر الجهادي حسب تشومسكي مادامت أمريكا مصرّة على سياستها الخارجية القائّمة على مبدأ الهيمنة وفرض النظام العالمي بالقوة. ولأن تشومسكي ينطلق من فكرة أن النظام العالمي الجديد هو نظام أحادي القطب تحركه الهيمنة الأمريكية فإنه يقول: لا بد أن نقرر أن جزءاً كبيراً حول الصراع سيتوقف على أوضاع الولايات المتحدة الأمريكية وهي القوة الدولية الكبرى القادرة على إملاء إرادتها على الإقليم. وأياً كانت النتائج فإن ما حدث ومهما كانت زاوية تفسيره إنما يشكل دليلاً بالغاً على حكم القوة في العلاقات الدولية. وهو ما يستدعي قلق أولئك المهتمين بمصير العالم (١٧).

عموماً يدعو تشومسكي إلى إعادة صوغ النظام العالمي. أي تشكيل نظام عالمي أكثر انصافاً. قائم على مبدأ الاعتراف المتبادل بين الدول والثقافات. حيث ينتفي مبدأ القوة والهيمنة. تنتفي على أثرها عقيدة الخلاص الامبريالية التي تبشر بها أمريكا بصيغة فرض الديمقراطية الليبرالية طوعاً أو كرهاً. إن الازدواج في تطبيق المعايير وانتهاك المبادئ المنادى بها ومواراة ذلك بالخطابات البلاغية والكلام المنمق. هي ما تجعل من الخطاب الخلاصي خطابه عقيماً. لا بل فضائحياً (١٨). حيث يتحول لشكل مقنع من أشكال الهيمنة. أما غير ذلك وإذا ما استمر النظام العالمي القائم على مؤسسات متعددة الجنسيات الربحية وعلى الهيمنة المقنعة على ما هو الحال، فإن الأمور ليست مرجحة للتحسن. بل هي تنذر بالأسوأ.

قراءة تشومسكي لمشكلة النظام العالمي والشرق الأوسط. هي قراءة تنطلق من توجه معارضة صريحة للسياسة الخارجية الأمريكية. والنظام العالمي الجديد. إن تشومسكي وهو المفكر التحرري اليساري. يسجل اعتراضه على التفاوت الاقتصادي والسياسي الذي يفرضه النظام العالمي برأسماليته المتوحشة. وهو لا يطمح إلى طرح تشكيل نظام عالمي جديد انطلاقاً من رؤية أيديولوجية. بل يريد أن يجعل من النظام العالمي الحالي أكثر إنسانية. أما بالنسبة للشرق الأوسط فإن تشومسكي يرى بأن المسؤول الأول عن أزماته ومشكلاته هي الإدارة الأمريكية بصفقتها القوة الفاعلة في النظام العالمي الراهن. عموماً يطبع مقارنة تشومسكي إيغالها في المقاربة الأخلاقية من جهة. وتركيز اهتمامها على نقد النظام العالمي أحادي القطب أو ما يعرف بعملية العولمة (الأمركة).

## II قراءة نقدية في المقاربات

يمكن القول عموماً بأن المقاربة الأمريكية للشرق الأوسط قياساً بالنظام العالمي الجديد تختلف باختلاف توجهات وانتماءات المفكرين الأمريكيين أو ما يمكن أن نصنفهم كذلك. والذي تناول هذا البحث خمسة نماذج منهم. وبمقياس المثالية والواقعية سيتم قياس مقارباتهم. على اختلاف وتعارضها. فمثلاً نجد تشومسكي المفكر اليساري الإنساني

وفوكوياما الموقن بأمركة نهاية التاريخ وانتصار الليبرالية الديمقراطية المحتوم . بالرغم من تعارض منظرياتها فهما يشتركان في كونها نوات طابع مثالي سياسيا . فان كان كل منهما يحاول في تحليلاته أن يستند لأحداث واقعية وتوثيقات تاريخية . فهما لا يحددان عن المثال الليبرالي كغاية تنظيرهما. فوكوياما ينشد مثال الليبرالية الديمقراطية اقتصاديا وسياسيا . أما نعوم تشومسكي فينشد مثال الديمقراطية السلمية والليبرالية التحررية . ويمكن للقارئ أن يحدد ببساطة ما ينشدهما سواء انطلق في استقراره من بداية أعمالهم أم من خاتمتها . وهذا طابع مميز في كل فكر مثالي سياسي . حيث يمثل المثال البداية والنهاية وغاية الغايات . وهو محكوم بمبدأ معين ظاهر الدفاع عنه . وما الظواهر الجزئية التي شذت عن القاعدة إلا انحراف عن روح المثال أو مرحلة في مراحل السيرورة في سبيل المثال.

هنتنغتون وبرنارد لويس . ذوي رؤى أكثر واقعية . لكنها واقعية مشروطة . ومحدودة بفرضية حتمية الصدام . أما هنري كيسنجر فنظرا لخبرته في الممارسة السياسية . فيمكن القول أن منظوريته حول الشرق الأوسط والنظام العالمي تمثل منظورية واقعية لأبعد حد ، خصوصا في ما يتعلق بنقطة مراعاة ميزان القوى وسيرورة تطور الأفكار التي يأخذ بها كيسنجر . لكن مع ذلك يعيب رؤية كيسنجر الواقعية شيء واحد هي انخراطها حتى النخاع في براديجم المنظور الأمريكية وعدم قدرتها على التحرر من قيم المثال الليبرالي!

على مستوى الإطار الفكري يمكن القول أن كلا من كيسنجر وفوكوياما وهنتنغتون وبرنارد لويس . ينطلقان من إطار الدفاع عن النظام العالمي القائم على الاستثناء الأمريكي ومكتسباته سواء اتفقوا على طرح الأحادية القطبية أم اختلفوا . إن هؤلاء يتكلمون جميعا بوصفهم قلقين على مصير النظام العالمي الذي تمثل أمريكا رمزا ومركزا له . يمثلون توجه الدفاع والمنافحة سواء نقدا أو تأييدا . أما نعوم تشومسكي فبوصفه يحمل لواء المعارضة . فانه يحاول أن يهاجم مشروعية النظام العالمي وينقلب عليه عبر نقد استراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية ومآلاتها على العالم خصوصا في منطقة الشرق الأوسط . حيث يقترح حولا نظرية يمكن تصنيفها في إطار البراديجم الإنساني.

بالنسبة لمقاربة فرنسيس فوكوياما فإنها تبقى محكومة بإطار فلسفي لرؤية نهاية التاريخ . أنها تنطلق من فلسفة تاريخ تحاول أن تتوصل إلى قانون التاريخ أو (المعنى من التاريخ) . بالنسبة لفوكوياما فان المعنى من التاريخ واضح متجل . أي (الليبرالية الديمقراطية) مجسدة في النظام العالمي القائم على الاستثناء والريادة الأمريكية . وعلى ما يبدو فان تحليلات فوكوياما لمسألة الشرق الأوسط هي تحليلات غير متعمقة بالشكل الكافي . ويعود نتيجة لجزم فوكوياما بحتمية (نهاية التاريخ) . لهذا تبقى مقاربتة ذات بعد مثالي واضح . ويتم اتهامها في كثير من الأحيان بأنها هي التبرير الأيديولوجي للهيمنة

الثقافية في زمن العولمة (١٩). او انها تمثل نوعا جديدا من الايمان الأعمى بايديولوجيا الخلاص (٢٠) وربما كان فوكوياما يبتعد في أحيان عديدة عن التعمق في حيثيات أزمة الشرق الأوسط لأنها تهدد بصفة جدية مشروعية مقاربتة لـ(نهاية التاريخ)!

على عكس فوكوياما المهلل للنظام العالمي أحادي القطب . يرفض تشومسكي النظام العالمي بمقوماته الحالية القائمة على الريادة الأمريكية واقتصاد السوق الحر و(حلف الشمال الأطلسي) كشرطي النظام لهذه المنظومة. وهو بهذا يكون أبرز داعية لتغيير ملامح النظام العالمي في التيار الليبرالي. حيث يدعو لتحويله لنظام أكثر مسالمة وتعددية. وهو يمثل نقیضا لفوكوياما إذا ما صنفنا هذا الأخير على اليمين الليبرالي . فان تشومسكي هو ممثل اليسار الليبرالي. قد تبدو منظورية نعوم تشومسكي جذابة خصوصا على مستوى تلقي (ثقافات الهامش) أو للدول المستضعفة . وذلك ما تدل عليه الترجمة المكثفة لأغلب أعمال نعوم تشومسكي للغة العربية مثلا. لكن أفكار تشومسكي السياسية هذه تبقى أفكارا مثالية—وفي أحيان تنميطية—لأقصى درجة . يمكن ان ندرجها في إطار السلموية pacifisme حيث أن تحليل تشومسكي لأزمة الشرق الأوسط إذا ما أردنا تقييمه يمكن القول عنه أنه لا تاريخي في جوهره ويقوم على نظرة مانوية (ثنائية الخير والشر).

إن التدخلات الأمريكية وهيمنة النظام العالمي هي أساس كل شر في المنطقة حسب تشومسكي . وإذا ما انتفت عقيدة التدخل السياسي والعسكري . فان الشرق الأوسط سيتجه للخلاص تلقائيا. تحليلات مثل هذه على جاذبيتها فان أي باحث متعمق في مختلف جوانب الأزمة (الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والدينية) سيعرف مدى نزعتها الاختزالية التي تصل حد الشعبوية. إنها على ما يبدو تحليلات فلسفية ذات جاذبية خاصة في تيار اليساريين والسلمويين. لكنها أبعد من أن تعبر عن حقيقة الوضع.

بالنسبة لبرنارد لويس . وهو أكثر مفكر من هؤلاء ينظر إليه بعين الريبة في عین (الأخر) . نظرا لعلاقاته المباشرة مع السياسة الإسرائيلية . فان موسوعيته وتحليلاته ليس على مستوى استنتاجاته. إن حكم برنارد لويس على أزمة المنطقة كأزمة للهويات المتصادمة انطلاقا من تحليلات معمقة يحيلنا في أحيان كثيرة لنتيجة نمطية . هي صراع الأصوليات والديمقراطيات. الصراع بين نظام عالمي ديمقراطي المثال وأصوليات تحاول فرض منطقتها انطلاقا من أزمة الشرق الأوسط. بالنسبة للويس فانه لا حل إلا الأنظمة العلمانية الديمقراطية لإحلال السلام في الشرق الأوسط . لكنه ينظر لهذا الأمر بتشاؤم نظرا لتصادم الأصوليات المستمر. إن مقاربة برنارد لويس هي مقاربة مقنعة على الأقل ظاهريا، فهو يحيلنا إلى حل مخفي لا يصرح به صراحة لكن يقول به ضمنا . أنه الحل الذي سماه فلاديمير لينين (تسريع الحتمي) . أي التدخل السياسي والعسكري لتسريع التخلص من الأصوليات والأيديولوجيات المعارضة في المنطقة تسريعا لعملية تكريس النظام العالمي

في المنطقة بهدف إحلال السلام. رؤية مثل هذه نعرف جميعا مدى خطورتها . وخصوصا على مستوى مآلاتها.

بالنسبة لهنتنغتون فانه يرادف بنمطية بين الثقافة والحضارة . حيث يعتبر الحضارة هي الثقافة . لكن التاريخ يشهد على غير تلك النمطية. فعلا رافقت الثقافة ظهور كل حضارة . لكن لا يمكن القول أن لكل ثقافة حضارة . فكم من ثقافة زالت حضارتها . لكنها مازالت تتشبث بعالم الوجود. والحضارة هي مجال أوسع من الثقافة . فالحضارة تعمد على استيعاب عدة ثقافات في بوتقة حضارية واحدة . وعالمنا المعاصر هو أحسن دليل على هذا القول. حيث أن التكنولوجيا وأغلب مجالات الحياة كلها تتشابه في كونها نتيجة منظومة حضارية واحدة . هي الحضارة الغربية. لكن الثقافات تعدد في العالم . حيث أن كثير من الشعوب تحتفظ بعاداتها الخاصة في التنظيم الاجتماعي والحياة الدينية والثقافية. مما يحيلنا ربما—بدلا عن صدام الحضارات— إلى صدام الثقافات. لكن ما نلاحظ على استعمال مصطلح صدام الحضارات بدل صدام الثقافات الذي قد يبدو أكثر مشروعية على المستوى النظري . هو استعماله الموجه! فهنتنغتون لا يريد من (الحضارة الغربية ) أن تنتظر بكسل تجسد نهاية التاريخ بانتصارها . بل يريد أن يفترض وجود تحديات حضارية جديدة قديمة تهدد النظام العالمي الذي ظهر اثر الهيمنة الغربية بقيادة (الاستثناء الأمريكي). ووجه القصور في نظرية هنتنغتون أنها تعتمد بصيغة فجأة على ثنائية الأنا والآخر . الذات والغريب. فهو مثلا يفترض أن روسيا لن تلبث أن تلتحق بالحضارة الغربية في حالة حدوث صدام حضاري كوني . بينما يفترض عدوين نمطيين هما الحضارة الإسلامية والصينية. لكن الأزمة الشرق الأوسطية الحالية . خصوصا الأزمة السورية . والتي إن كانت مصداقا لمقاربة هنتنغتون قبالا . فإنها تكذبها حاليا . من حيث عودة روسيا للانخراط في الصراع الحضاري . بصفتها المهدد الأول للمصالح الأمريكية في المنطقة. وقد رأى محمد عابد الجابري بان المقاربة الهوياتية هي مقاربة مضللة لأن السياسة الأمريكية يحكمها منطق المصلحة أولاً(٢١) . عموما فان مقاربة هنتنغتون وإن كانت تحمل نوعا من الواقعية إلا أنها ليست مقاربة عفوية بل هي مقاربة أيديولوجية لها غاياتها المضافة لغاية وصف عن حقيقة الظاهرة.

بالنسبة لكيسنجر . فان مقاربتة تبدو أكثر واقعية من بين كل ما تم تناوله في هذا البحث . ولكن المشكلة في القارئ لكتابات كيسنجر . هو أنه لا يمكن الفصل بين كيسنجر السياسي وبين كيسنجر المفكر. إن كيسنجر يكتب كما كان يمارس السياسية . بدبلوماسية مقنعة ماكورة. وعب الألفاظ المنمقة التي تصل حد المثالية يظهر دائما طابع السياسي المحض لرجل أمضى حياته في مضممار السياسة العالمية ممارسة وتنظيرا للنظام العالمي الراهن. وان كان كيسنجر يدعو لنشر النظام العالمي وقيمه الليبرالية وتخطيط الدولة الوستفالية. ومع



ذلك فإنه لا يمانع من بقاء دول ترفض القيم الليبرالية . لكن توافق على المنظومة الوستفالية . لأن القيم الليبرالية أو الديمقراطية هي قيم أخلاقية . والمنظومة الوستفالية هي قيمة إستراتيجية سياسية . والسلام حسب كيسنجر لا يتحقق بالمثال الأخلاقي بل بالواقع الاستراتيجي القائم على مبدأ توازن القوى . يمكن القول عموماً بأن كيسنجر يدعم مبدأ الغاية التي تبرر الوسيلة تماماً .

على المستوى الأخلاقي يمكن انتقاد كيسنجر في عدد من الجوانب . لكنه على المستوى الاستراتيجي يصيغ مقاربة أكثر واقعية للتجسد في الشرق الأوسط . ربما يبقى إصراره الغير مشروط على النظام الوستفالي ونزعتة الأمريكية الفجة هي نقاط ضعف مقاربتة . لكن تبقى الواقعية هي السمة المميزة لهذه المقاربة . ويبقى أهم نقاط الضعف في خطاب كيسنجر هو طبيعته التي يغلب عليها كثيراً طابع الخطاب السياسي .

### خاتمة : ما وراء المقاربة الأمريكية

لقد كانت المقاربة الفكرية الأمريكية لقضية الشرق الأوسط . منطوية — سواء نقداً أو تأييداً — في براديجم (الاستثناء والريادة الأمريكية) كمسلمة يرتكز عليها النظام العالمي . وهذا ما يقود في أغلب الأحيان لقصور في تحليل واقع الشرق الأوسط . لكن سيكون من الواقعي افتراض مقاربة للشرق الأوسط مع أميركا كقوة مهيمنة على النظام العالمي . حيث أن الواقع يشير الى أن واشنطن أصبحت ذات حضور جوهري في ادارة الشؤون الداخلية والخارجية للشرق الأوسط . من حيث أنها حسب البعض أصبحت ضابط ميزان التوازن والسلام في المنطقة . لكن للوصول لحل دائم لأزمة الشرق الأوسط وعلاقته بالنظام العالمي، لا بد من صوغ مقاربة شرق أوسطية أصيلة بالذات وللذات الشرق الأوسطية . مثلاً المقاربة الوستفالية التي يقترحها هنري كيسنجر هي في الأصل وضعت لحل أزمة في الفضاء الأوروبي بمكونات أوروبية (دول أوروبية) . وحل الأزمة الشرق أوسطية يفترض وجود مقاربة من تلك الصيغة منطقياً وليس شكلياً أو عن طريق المحاكاة .

كثيراً ما يتم تناول مشكل صدام الأيديولوجيات والأفكار في الشرق الأوسط كعائق لتجسيد السلام في النظام العالمي . ربما أول نقطة يجدر بنا أن نميط اللثام عنها هي فك الارتباط بين الحضارة والثقافة . ان هذه المسلمة التي تقول بها رؤى الصدام حول التماهي بين الثقافة وبين الحضارة . ليست رؤية ينفرد بها هنتنغتون أو برنارد لويس فقط . بل هي وجهة نظر يقول بها جل من يقول بنظرية الصدام . حيث أن سيد قطب على سبيل المثال يرى بأن الثقافة الاسلامية تساوي الحضارة . وهذه الرؤية الماهوية هي ما يرفضها المستشرق والمتخصص في القضايا الإسلامية المعاصرة الفرنسي (اوليفيه روا) الذي يرى بأن أي رؤية حول صدام / حوار الحضارات هي رؤية غير مجدية لأنها قاصرة عن فهم الواقع الثقافي (٢٢) . كذلك سبق الإشارة الى اختلاف مجال الثقافة عن الحضارة .

فالثقافة هي التنوع و الخصوصية . أن الحضارة وان كانت تنطلق من مرجعية ثقافية معينة فهي قادرة على استيعاب عدة ثقافات في بوتقة واحدة من منطلق طبيعتها التوسعية والاستيعابية. ان المتأمل للواقع الحضاري اليوم يرى بأن الدول على تنوع ثقافاتهما وتوجهاتها فأنها في العمق تحمل نفس التركيب . انه زمن الدول / الأمة. حيث ان جل دول العالم تملك نظاما تعليميا متدرجا نحو التعليم الجامعي . كذلك نلاحظ نمطية في أشكال المؤسسات السياسية والتي على اختلاف شكلها الى أنها أصبحت متقاربة أكثر من أي وقت مضى . كل هذا يجعل من الطابع الكوني الحضاري هو السمة المميزة لعصر العولمة. أيضا الانفتاح الإعلامي مع الانترنت جعل من إستراتيجية الانغلاق الثقافي أمراً شبه مستحيل حتى على دولة مثل كوريا الشمالية. أمور كثيرة تغيرت . ربما تكون هناك عملية تنميطية لا واعية في الأفق مثلما يقول به المحذرون من العولمة . لكن على الرغم من تنوع وتصادم الأفكار السياسية . إلا أن الاختلاف اليوم في شكل الدولة وتوجهاتها أخف بدرجات من أبسط اختلاف سياسي في العصر الوسيط. هذا كله يوحى بالوصول الى استنتاج مهم هو أن الحضارة تتنمط في قناة واحدة . على الرغم من صمود الثقافات بدرجة أكبر . مما يحيل الى القول أننا نتجه لعالم أحادي الحضارة متعدد الثقافات.

لقد تطور النظام السياسي في مختلف البيئات والثقافات على عدة مراحل . ربما عدة قرون. وشهدت هذه الأفكار السياسية عدة قطائع معرفية وثورات فكرية . حيث شكلت مجموع هذه السيرورات منظومات سياسية متكاملة عبر مختلف الأزمنة. أما النظام العالمي الحالي ومركزه . فيبدو أن ذاكرته التاريخية قصيرة . حيث أنه يريد أن يفرض نفسه كرها على شرق أوسط يأبى الانخراط بالمشروطية الكاملة لهذا النظام العالمي حاليا. وعبر عدة حجج من مثل التدخل الإنساني أو ما يسمى (الحرب الإستباقية . الحرب على الارهاب...) ثبت لنا نتائج تلك الاستراتيجيات الكارثية . خصوصا على المستوى المتوسط والبعيد. واذا كان كيسينجر يرى بتعذر معرفة (معنى التاريخ) . فانه يمكننا معرفة الحكمة من أحداث التاريخ . وإذا ما نظرنا للحكمة من التاريخ . فانه يتضح لنا أن عقيدة المزاجية بين المثال الذي يركز به النظام العالمي وبين الضروريات الاستراتيجية التي تقتضي التدخل العسكري الغير (استعماري) . هي عقيدة سياسية خطيرة أثبتت عدم جدواها . اللهم إلا اذا كان الغرض منه تطبيق استراتيجية الفوضى الخلاقة. لكن يبقى السؤال خلاقة لماذا؟! ربما يكون لقصر النظر السياسي الذي يمثل الفكر السياسي المعاصر . وغياب الصحافة الرؤوية التاريخية دور رئيس في تعذر الاجابة عن هذه الأسئلة في الفكر الراهن.

ان ما يسمى العولمة تعمد الى تأسيس حقبة حضارية جديدة . لم يعهد لها الانسان مثيلا في تاريخه. ان معايير الحضارة والثقافة في زمن العولمة تغيرت حقا. استراتيجيات المقاومة الثقافية التقليدية اما تجاوزها الزمن أو انها أصبحت ملغاة تماما. نمط جديد من العيش

الانساني يفرض نفسه على جل البشر في المعمورة. ان الحديث عن النظام العالمي الجديد بصيغة المقاربة الأمريكية . يبقى فيه نوع من الأحادية في الطرح والاستعلاء الهوياتي الذي يمارسه دعاة الليبرالية الأمريكية . في سبيل تجسيد نظامهم العالمي ذو الطبيعة الليبرالية الخلاصية. لكن سواء قلنا بنظام عالمي احادي القطب . أو متعدد الأقطاب. نظام الريادة والاستثناء الأمريكي أو غيره . فان شيئاً جديداً في طريقه للتشكل بفعل نوع من تعولم المعلومة والفكرة كونيا. ففي أثناء القاء الطائفة الأمريكية للقبلة النووية على مدينة هيروشيما . استغرقت وصول المعلومة الكاملة حول الحادثة إلى طوكيو العاصمة اليابانية حوالي ١٦ ساعة . أما اليوم بفعل الانترنت و تقنيات الاتصال العالية الجودة . فان حادث مقتل شخص في القطب الشمالي قد يصل الى جميع أنحاء العالم في غضون دقائق . لم يعد يخفى حدث على أبسط الناس . المحظورات مباحة والممنوعات ممكنة . سلبا أو ايجابا! . جميع الأفكار أصبحت تتصارع في حلبة واحدة . حيث حلبة الفكر العالمي أو هكذا يخيل لنا. والبقاء للأصلح . وربما بالمنطق الإعلامي البقاء للأكثر جاذبية والأكثر نفوذاً. إن نموذجاً معيناً من التحضر يفرض نفسه . كالتحضر النمطي الكوني . وما يزيد من تسارع وتيرة هته العملية أن الأمر ترسخ في المخيال الجمعي للبشر في مختلف البيئات والثقافات. ربما تكون الأفكار المعولمة تلك تمارس نوعاً من الخصاء الثقافي . إلا أنها بفعل عدة عمليات تفرض نفسها كنموذج للإنسان المستقبلي الذي نشده تشكله في عصرنا الحالي.

بالنسبة للشرق الأوسط فسر بقاءه كمنطقة ثقافية قلقة هو التنوع الهائل داخله من أفكار وقضايا . تجاذبات زاد حدتها تعولم هذه الأفكار . لقد عاد الشرق مرة أخرى ليكون الأرض الموعودة . وهذه المرة هو ليس عرضة للحروب الدينية بمفهومها المقدس قديماً . لكنه حلبة صراع الديني المعولم والأيديولوجيات الراديكالية التي تحلم بأن تصنع مجدها عن طريق تدمير النظام العالمي الحالي . وتقف كحجر عثرة في مسار التاريخ الخطي للنهاية كما رسمه فوكوياما. يمكن اثر هذا القول إن مستقبل النظام العالمي الجديد ستحدده تطورات المنطقة الشرق أوسطية.

### الهوامش

- ١- هنري كيسنجر . النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ . ترجمة فاضل جكتر . دار الكتاب العربي . بيروت ٢٠١٥ . ص ١٥٦
- ٢- نفس المرجع . ص ١٢٥
- ٣- نفس المرجع . ص ٣٢١
- ٤- نفس المرجع . ص ٣٦٣
- ٥- فرانسيس فوكوياما . امريكا على مفترق الطرق . ترجمة محمد محمود التوبة . العبيكان . المملكة العربية السعودية . ط ١ . ٢٠٠٧ . ص ٢٣٩
- ٦- Francis Fukuyama , political order & political decay , Farrar, Straus and Giroux , new York , 2014 , p651
- ٧- Francis Fukuyama , le début de l'histoire : des origines de la politique à nos jours , traduction de pierre guglielmina , édition saint-simon , paris-France , 2012 .,p24
- ٨- Samuel.P.Huntington , le choc des civilisations , édition odile jacobe , paris-France , novembre 1997 .,p 25 et 26
- ٩- Ibid. , p 357
- ١٠- Ibid. , p282
- ١١- محمد عابد الجابري . قضايا في الفكر المعاصر . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط ١ . ١٩٩٧ . ص ٨٤
- ١٢- برنارد لويس . تنبؤات مستقبل الشرق الأوسط . شركة رياض الريس للكتب والنشر . بيروت . ط ١ . ٢٠٠٠ . ص ١٣٢
- ١٣- علي حرب . الارهاب و صناعه : المرشد / الطاغية / المثقف . الدار العربية للعلوم ناشرون . بيروت . ط ١ . ٢٠١٥ . ص ١٠
- ١٤- نعوم تشومسكي . الدول الفاشلة : اساءة استعمال القوة والتعدي على الديمقراطية . ترجمة سامي الكعكي . دار الكتاب العربي . بيروت . ٢٠٠٧ . الفصل الرابع
- ١٥- نعوم تشومسكي . قرصنة وأباطرة : الارهاب الدولي في العالم الحقيقي . دار حوران للدراسات والنشر والتوزيع . ط ١ . ١٩٩٦ . ص ١١٦
- ١٦- نعوم تشومسكي . أوهام الشرق الأوسط . ترجمة شيرين فهمي . مكتبة الشروق الدولية . القاهرة . ط ٢ . ٢٠٠٦ . ص ٩٠
- ١٧- نعوم تشومسكي . النظام العالمي الجديد والقديم . ترجمة عاطف معتمد عبد الحكيم . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . مصر . ط ١ . ٢٠٠٧ . ص ١٩٤

- ١٨- نعوم تشومسكي. **الدول الفاشلة**. ص ٢٥٠ ص ٢٥١
- ١٩- جلال امين العالم . **العولمة** . دار الشروق . القاهرة . ط ١ . ٢٠٠٩ . ص ٣٧
- ٢٠- علي حرب . **أوهام النخبة أو نقد المثقف** . المركز الثقافي العربي . ط ٢ . ٢٠٠٤ . ص ٦٠
- ٢١- محمد عابد الجابري . **قضايا في الفكر المعاصر** . ص ١٢٨
- ٢٢- اوليفيه روا. **الجهل المقدس: زمن دين بلا ثقافة** . ترجمة صالح الأشمر . دار الساقى . بيروت . ص ٢٠

### قائمة المراجع

- اوليفيه روا. **الجهل المقدس: زمن دين بلا ثقافة** . ترجمة صالح الأشمر . دار الساقى بيروت .
- برنارد لويس . **تنبؤات مستقبل الشرق الأوسط** . شركة رياض الريس للكتب والنشر . بيروت . ط ١ . ٢٠٠٠ .
- جلال امين العالم . **العولمة** . دار الشروق . القاهرة . ط ١ . ٢٠٠٩ .
- علي حرب . **أوهام النخبة أو نقد المثقف** . المركز الثقافي العربي . ط ٢ . ٢٠٠٤ .
- علي حرب . **الارهاب و صناعه : المرشد/ الطاغية/ المثقف** . الدار العربية للعلوم ناشرون . بيروت . ط ١ . ٢٠١٥ .
- فرانسيس فوكوياما . **امريكا على مفترق الطرق** . ترجمة محمد محمود التوبة . العبيكان . المملكة العربية السعودية . ط ١ . ٢٠٠٧ .
- محمد عابد الجابري . **قضايا في الفكر المعاصر** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط ١ . ١٩٩٧ .
- نعوم تشومسكي . **الدول الفاشلة : اساءة استعمال القوة والتعدي على الديمقراطية** . ترجمة سامي الكعكي . دار الكتاب العربي . بيروت . ٢٠٠٧ .
- نعوم تشومسكي . **قراصنة وأباطرة : الارهاب الدولي في العالم الحقيقي** . دار حوران للدراسات والنشر والتوزيع . ط ١ . ١٩٩٦ .
- نعوم تشومسكي . **النظام العالمي الجديد والقديم** . ترجمة عاطف معتمد عبد الحكيم . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . مصر . ط ١ . ٢٠٠٧ .
- نعوم تشومسكي . **أوهام الشرق الأوسط** . ترجمة شيرين فهمي . مكتبة الشروق الدولية . القاهرة . ط ٢ . ٢٠٠٦ .
- هنري كيسنجر . **النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ** .

ترجمة فاضل جكتر. دار الكتاب العربي . بيروت ٢٠١٥ .

- Francis Fukuyama , **le début de l'histoire : des origines de la politique à nos jours** , traduction de pierre guglielmina , édition saint-simon ,paris-France , 2012
- Francis Fukuyama , **political order & political decay** , Farrar, Straus and Giroux , new York , 2014.
- Samuel.P.Huntington , **le choc des civilisations** , édition odile jacobé ,paris –France , novembre 1997.